# القصة الثامنة

## القلب أعمى "قصة حقيقية"

"إلا تأتيك لحظات يقطر قلبك ألماً لشيء صغير تذكرته كان بيننا؟ وكيف أتوقع ذلك منك وأنت قطعة من الجحود، فامرح كثيراً الآن، فالقدر يخفي لك الكثير من الألم".

مقتبس

*****

ربيع عام ١٩٨٧

تحتضن كراساتها إلى صدرها. مرتدية زي الجامعة.. آنذاك كان أزرق غامقًا، وتحته قميص أبي، أنيق لكن محترم يليق بفتاة جامعية في مرحلتها الأخيرة تدرس علم الأحياء، بجانبها صديقتها تنتظر نزول زميلهن لينظم إليهن بعد انتهائه من امتحانات نصف السنة الدراسية.. لم يتبقَ إلا أشهر قليلة ويحتفلون بالتخرج، لكن كبقية الناس كانوا يعانون كثيرا وضغط الأوضاع الصعبة عليهم.. والأخبار الحزينة التي يستمعون لها في الإذاعة والتلفزيون تجهض كل الأفراح التي كان يجب أن تولد. الحرب العراقية الإيرانية ما زالت قائمة وما زالت تحصد الكثير من أرواح العراقيين البسلاء.

دقائق مضت. ورأت سما من بعيد أن إحسان قادم باتجاهها ارتسمت على شفتيها ابتسامة وهي تتساءل كيف أدى امتحانه يا ترى؟

تقرب منهم وقال: "وأخيرا.. انتهينا".

أجابت سما: "الحمد لله.. كيف كانت إجاباتك؟".

"تسمح لي بالنجاح.. على ما أظن". أجاب بلا مبالاة.. لم يكن يهتم كثيرا؛ فحال تخرجه سينظم للجيش العراقي من أجل الدفاع عن أراضيه.

قالت نور الصديقه المشتركة بينهما: "إلى متى سنعيش هذا العذاب؟ كل البيوت اتشحت بالسواد".

تنهدت سما وقالت: "ليس بيدنا سوى الدعاء. كما أني لا أريد أن تنتهي هذه السنة ولا أريد التخرج.. لم أعد قادرة على الفراق أكثر".

فهم إحسان ما كانت تحاول قوله؛ فاجاب: "لا تقلقي.. إذا ذهبت حتما سأعود.. لن أموت قبل أن أتزوجك".

ابتسمت بشفاه تحيطها الحزن وقالت: "وأنا أؤمن بذلك".

قاطعتهم نور وقالت: "لمَ لا تتزوج قبل أن ينظم للجيش.. أليس أفضل؟".

قال إحسان رأسا: "ليس أفضل.. لو مت هناك ستصبح أرملة.. وأنا لن أسمح بهذا مطلقا.. إذا عدت نتزوج وإذا لم اعد ستنساني يوما وتبدأ حياتها من جديد".

أجابت سما: "هل تتكلم بجدية؟ هل تعتقد أني سأحب أحدًا بعدك؟ مستحيل؛ إما أنت، أو لا أحد.

"مجنونة".. قال إحسان ثم أكمل: "إذا انتهينا من الحديث لنفترق ونلتقي يوم خطبتنا.. ستكونين موجودة يا نور.. صحيح؟".

"طبعا.. وهل أفوت مشاهدة تتويج عشقكم الأسطوري هذا".

ضحكت سما، وهي تودعها على أمل لقائهما الأسبوع القادم.. أخذها

إحسان وأوصلها إلى المنزل.. تفقد مع والدها آخر الأمور من أجل الخطبة وعاد لمنزله.

عاش إحسان وسما قصة حب منذ أول مرحلة في الجامعة بعد تعرفهما تقاربا كثيرا..ومما أكد انهما سيكونان لبعض الصدفة التي لعبت دورًا في ذلك؛ فتبين أنهما أقرباء من بعيد فكانت علاقتهما أكثر قوة، حتى جاء اليوم الذي فاتحها فيه إحسان عن نيته في التقدم لطلبها بعد أن حدث والديه بذلك ولقي موافقة فورية.

حكايتهم من الحكايات التي تتعثر بالمطبات أمامهم بل بالعكس كانت سلسة في تقدمها، وهو دخل من الباب مباشرة.

جاء موعد الخطبة الذي كان هادئا نوعا ما بسبب الظروف غير الطبيعية التي يمرون بها فاقتصرت على الأقرباء المقربين فقط.. ومن أصدقائهم لم يكن هناك سوى نور.

لبست خواتم الخطبة وعليت الزغاريد وأصوات التصفيق والتهاني. التبريكات التي تمنوا لهم فيها أطيب الأمنيات. كان يجلس بجانبها يتهامسان بكل رقة وابتسامة خجولة ترتسم على شفاه سما قالت له بهمس: "يكفيك حديثًا عيون الجميع علينا وأنا أخجل.. تراهم ماذا يفكرون؟".

أجابها قائلا: "ما الذي سيقولونه مثلا.. اثنان خطبا للتو.. يعشقان بعضهما.. مايقولونه ليس مهما، بل ماذا سنفعل نحن؟".

بان على وجهها علامات تعجب على ما كان يقوله ويلمح به.. ثم قالت: "إياك يا إحسان والتفكير بجنون.. إياك.. ما زلنا في بداية الطريق".

ضحك.. هو يعرف أن دماغها تذهب شمالا. قال مازحا: "لم أقصد شيئا..

أنت دائما تظنين السوء بي".

"وأنت دائما تمزح بثقل معي". أجابت هي.

بعدها أحضروا سفرة الطعام، وتجمع الحاضرين من أجل العشاء المقيم على شرف خطبة إحسان وسما.

مرت الأيام وعادت الحياة الجامعية من جديد.. هنأهم الزملاء وبدأ النصف الثاني، لكن كانت بدايته مفجعة فقد وصل لهم خبر وفاة ابن عم سما الذي كان يقاتل في جبهات المعركة، واتضح أنه قتل بعد تعذيب شديد له من العدو. وحتى وصل إلى التمثيل بجثته.. كانت خبرا مؤلما بجد لان سما ليس لديها إخوة وابن عمها هذا كان أقرب لها من أخ كبير تأثرت جدًّا بموته.. حتى إن المرض الم بها لفترة كبيرة. بينما كان إحسان يحاول أن يقف بجانبها ويسليها على فيدانها أخاها وابن عمها.. كان الحمل أثقل عليه فقد بين جامعته وبين خطيبته.

تعب كثيرا حتى أقنعها بأن تعود من جديد كما كانت.. حتى إنه هددها بتركها لأنها لم تترك له أي حل غير ذلك.. التهديد نفعها، وعادت تدريجيا إلى طبيعتها. وأكملت دراستها تلك السنة حتى حفل التخرج لم يكن له أي معنى في ظل تلك الأوضاع.

في اليوم الذي يسبق أول امتحان نهائي لهم. كانت سما تجلس في كافتريا جامعة بغداد، وبجانبها كالعادة نور تشربان الشاي وتتحدثان عن بعض المواد الدراسية وعن استعدادهم للامتحانات. قاطعهم إحسان قائلا: "لقد وصلني البارحة التبليغ بالالتحاق بالجيش حالما تنتهي الامتحانات".

توسعت عينا سما وقالت: "يعني متى بالظبط؟".

قال إحسان: "بعد عشرين يوما بالتمام والكمال".

"يا إلهي". نطقت سما.. "يعني لن استطيع قضاء غير يومين فقط قبل أن تلتحق وبعد أن ننهي الامتحانات".

أجاب إحسان: "بالكاد.. سأحتاج ليوم أيضا من أجل تحضير الأوراق القانونية للالتحاق أيضا.. متى ستنتهي هذه الحرب يا ألله.. سنين ونحن ندفن شهداءنا ونرسل شبابنا إلى حتفهم. اللهم متى تتوب عنا وننهي غضبك هذا".

قالت نور: "ليس بأيدينا حيلة.. لن نترك أرضنا للغرباء مثلا.. لكن يجب أن ندعي لهم بالانتصار وعودة ما تبقى سالمين".

تنهدت سما وقالت: "لا أدري كيف سنقضي فترة الامتحانات ونحن سمعنا للتو هذا الخبر يا إحسان".

رفع كتفيه بلا مبالاة فمابالید حيلة.

انتهى العام الدراسي.. وكان لا بد أن يلتحق إحسان لتأدية واجبه الوطني كانت في الليلة التي سبقت رحيله.. يجلس مع سما في صالة الضيوف ممسكا بيديها الاثنتين قائلا: "تعلمين كم أحبك.. وأنا محظوظ جدًّا لارتباطي بفتاة مثل جمالك وأخلاقك.. فقط أريدك أن تعرفي حقيقة واحدة، أن من على الجبهات لا توجد وعود. فلا أعدك بعودتي. ولا أعدك أنني قد أرجع نفس الشخص الذي عليه الآن، سمعت من الكثير أن الجنود تتغير طباعهم ونفسياتهم بعد رؤية، الدم والموت الذي يحيطهم. فإذا أطلت الغياب، ولم اعد، فلك كل الحق بأن تكملي حياتك".

لثمت شفتيه بيديها وأسكتته عن متابعة ما يقول وقالت له: "إياك أن تكمل. فقلبي لن يملكه سواك، وسأظل أنتظرك طوال العمر.. ولا تدع الأفكار السلبية تطرأ حتى على بالك. ستعود حتما سالما وسنتزوج ونرزق بأطفال. وسنبدأ من حيث توقفنا كأن شيئًا لم يكن".

أمسك بيدها وقبلها.. احتضنته هي بكل قوتها. لم يتحمل قربها. التهم شفتيها كانه يشحن كل طاقته منها. ابتعد عنها وهي خجلة.. هذه أول مرة يقبلها به. احمرت وجنتاها وتوترت.. رفع دقنها بيده ليتابع النظر في عينيها وقال: "ستكون هذه القبلة هي المعجزة التي ستبقيني على قيد الحياة لأعود لك".

ودعها بدموع لا تتوقف وبتنهيدات صامتة تأبى الخروج. والتحق في اليوم الثاني وكان مركزه مدينة كركوك العراقية.

*****

الحرب وما أدراك ما الحرب.. الحرب أولها نار وآخرها رماد. ما من أحد ربح حربًا قط.. حتى الرابحون خاسرون. لا أحد يخرج من الحرب سليما إلا وقد فقد شيئئا ثمينا فيها. نحن نحارب بدمائنا حتى يعلق على صدر القادة أنواط الشجاعة.

كم من بيت توشح بالسواد، وكم من أم فقدت وليدها وأخت لأخيها وزوجة لزوجها، وابن لوالده.. كم من الدموع سكبت على قبور لا تحتضن في داخلها جثثًا كاملة.. كم بطل غاب عن بيته لسنوات ولما عاد ما كان هو كما كان ولا أهله عرفوه كما كان. الحرب يا سادة مقبرة الأحياء والأموات.

في تلك السنة كانت قوات كلا الطرفين تحرزان تقدما في أراضي الاثنين. فقد

استطاعت إيران وقتها أن تتقدم حتى الفاو ووضعت يدها عليه وانتشرت قواتها هناك. ولم تستطع القوات العراقية رد الهجوم بل كان سبب سقوط الفاو هو أن حمايتها كانت تحت قيادة الجيش الشعبي الذي كان ضعيف التدريب بالعكس من الحرس الجمهوري العراقي الذي كان عالي التدريب، وكذلك لم يدرك القادة العراقيين ثقل الهجوم الذي كانت تعد له إيران حتى بعد سقوط الفاو.

كانت الأخبار التى تصل إلى الشعب مخيفة في بعض الأحيان، وخاصة إذا لم تصلهم أي أخبار من شبابهم الذين يقاتلون في ساحات المعارك.

لكن بسبب بطولات رجال العراق الشامخين.. أسود الرافدين.. استطاعوا أن يوقفوا التمدد الإيراني أكثر ومنعوهم من الشمال والوسط.. فاستطاعو دخول الأراضي الإيرانية من طرف السليمانية ثم بعدها طوروا خطة جديدة وأدركوا ما هي نقاط ضعف الجيش الإيراني. استعادوا الفاو منهم من جديد بقيادة فرقة نبوخذ نصر.وعادت الفاو لأرض العراق.

كما شنت أيضا هجمات بالطائرات استطاعت بذلك شل حركة الجيش الإيراني. أضعافه على الحدود بقط الجسور التي كانت توصل لهم ومؤن العدكريع الغذائية. وحتى استطاعوا الدخول إلى الكثير من الأراضي الإيرانية وقتها.

لكن الإيرانين لم يتوقفوا.. شنوا هجوما آخر لكن تصدى لهم الجيش العراقي ب ٤٠ ألف مقاتل.. حتى وقف إطلاق النار في ٨ من أغسطس. وكان النصر للعراق لكن بعد خسارة أكثر ٣٤٠٠٠٠ شهيد وآلاف الأسرى الذين بقي بعضهم مفقودا إلى حد الآن لا يعرف ما كان مصيرهم.

أفراح وأهازيج تنتشر في كل مكان.. رقصات شعبية ودق الطبول أغاني

تسمع كلماتها بفم الأطفال قبل الكبار. الكل ينتظر أحبته الغائبين في جبهات القتال ينتظرونهم محملين بسلات مليئة بالحلويات ليرشوه في السماء عند قدومهم.

الأنظار على الأبواب دائما، يقفزون عند سماعهم صون الهاتف الأرضي.. حين يرن.. ربما يجلب لهم الأخبار السارة وكل هذا ولا يوجد أي خبر عن إحسان.

بعد أكثر من أسبوعين من وقف إطلاق النار وعودة الجنود إلى مدنهم وقراهم. ما زال إحسان لم يعد ولا يعرفون أي شيء عنه.

رن الهاتف في منزل سما.. أجاب والدها. تحدث قليلا حتى أتت هي، كانت علامات وجهه لا تبشر بالخير أبدا. كان كل ما يلفظه هو.. "نعم، حسنًا، الله كريم، إن شاء الله".

أغلق الهاتف وأحست سما بأن صدرها ينقبض. لا بد أن خبرًا ما سيئًا للغاية حتى إن والدها تعكرت تقاسيمه. قالت له: "من كان المتصل يا أبي".

أجابها وهو لا يستطيع النظر في عينها: "كان والد إحسان يا ابنتي".

"وماذا هناك؟ هل إحسان بخير؟ هل لديهم أي معلومات عن تأخره؟ أين هو الآن؟ هل عاد؟

"لا". أجاب بحرقة.. "لم يعد، سيذهبون للسوال عنه في مقر الحزب، حيث وصلت أوامر لكل أهالي الجنود الذين لم يعودوا لمنازلهم أن يسجلوا أسماءهم في مقرات الحزب القريبة منهم مع صورة للجندي".

لطمت سما على صدرها بقوة.. أحست أن الذي يفعلونه سدى لا بد أن إحسان قد أسره الجيش الإيراني كما أسر الكثير قبله.. قالت والدموع تنهمر من

عينيها: "لا بد أنه أسر إحسان.. لن يعود يا أبي.. إني أشعر بهذا".

وبدأت بنوبة من الهلع والبكاء.. لم يستطع أحد تهدئتها حتى أغشي عليها ونقلت إلى المشفى. بقيت هناك ليومين قال الطبيب إنها عُرِّضت لانهيار نفسي إثر صدمة ما.

كان وقع الخبر عليها مؤثرًا جدًّا، ها هي تخسر رجلًا آخر كان مهمًا في حياتها.

لشهر وأكثر وأهل إحسان يبحثون عنه دون جدوى، حتى وصلت لهم أخبار من منظمة الهلال الأحمر أنه اعتقل ويعتبر أسيرًا بيد القوات الإيرانية. وقد أخبروهم أنهم سيفعلون ما بيدهم لمساعدة الأهالي في استرجاع أولادهم.

وبسبب هذا الخبر عُرِّضت والدته لجلطة في الدماغ أقعدتها الفراش لمدة طويلة حتى وافتها المنية بعد سنة من فقد ولدها. وأما والده فكان بحالة يرثى لها ولم يبقِ إخوته بابًا حتى طرقوه وما من مجيب.

سما عاشت أصعب أيام حياتها؛ ففقدانها لحبيبها وخطيبها كان له أثر كبير عليها لم يمر يوما إلا وكانت تبكي فيه. تتذكر أيامهم وحديثها معه. تجلس قبالة النافذة طويلا تنتظر بعيون تبحلق في الفراغ الذي تركه إحسان بعد غيابه.

ذات مساء جاء والدها، جلس بجانبها يحدثها وقال: "إلى متى ستبقين على هذه الحال يا ابنتي، ما زلت فتاة شابة في مقتبل عمرها. وما زالت الحياة أمامك لن أدعك تدفنيها مع إحسان".

نظرت له باندهاش حين قال ذلك.. كأن إحسان مات ودفن.. أجابت هي بغضب وقالت: "إحسان لم يمت يا أبي إحسان ما زال على قيد الحياة لكنك لو أصريتم علي هكذا أكثر. ستدفنونني أنا قبله.. هل فهمت؟".

تركته ودخلت إلى غرفتها.. عاتبته الأم وأخبرته أن يبتعد عنها هذه الفترة.. تحتاج إلى الوقت حتى تعود إلى صوابها فاستسلم الأب للامر بالرغم من انه يحزن جدًّا على ابنته وما حدث لها.

كانت أمها تقول دائما: "الحمد لله أنهما لم يتزوجا وإلا كانت ابنتها ستصبح معلقة بين السماء والأرض؛ لا هي أرملة، ولا هي زوجة عادية".

مر الكثير من الوقت وكما الوقت يشفي الجروح؛ فالوقت يقلل من آثار أي شيء على الإنسان.. وبدأت سما تستعيد نفسها رويدا رويدا.. وخاصة بعد أن بدأت بالعمل لكنها رفضت فكرة الارتباط بآخر لأنها تنتظر عودة إحسان.. كانت تذهب مع والده وأخيه كلما سمحت الفرصة للسؤال عند منظمة الصليب الأحمر، وبعد ثلاث سنوات.. وصلت رسالة منه إليهم

كانت هذه الرسالة عبارة عن أمل تجدد في قلوبهم جميعا.. كانت الكلمات قليلة لكنها تؤكد بقاءه على الحياة كما أتى على ذكر سما وكان قد أخبرها أنها لو تريد أن تكمل حياتها من دونه فهو يتفهم جيدا هذا الأمر. ولن يكون حزينا لو فعلت.. لأن لا أحد يعرف متى سيعود.

كان إحسان مسجونا في معسكر اسمه "اراك" تحت الأرض مخصص للسياسيين والوطنيين الذين لم يستسلموا وحاربوا لآخر طلقة في بنادقهم، ولا يعرفون فيه الليل من النهار.. عانى من التعذيب والترهيب، كانوا يجلدونهم.. ويحرقونهم في بعض الأحيان بالسكائر أو يقومون بإحماء أسياخ حديدية ثم لصقها على أطرافهم أو صدورهم. كانوا يغرقونهم في مياه ثلجية في الشتاء أو يجلسونهم على أرض مصنوعة من الحديد في الصيف فيحترقون فيها.

كانوا يقولون له إذا شتمت العراق سوف تعيش برفاهية، ولكن كان يرفض هذا الأمر لذلك قطعوا عنه الغذاء، وبدلا من ثلاث وجبات كان يعطونه وجبة واحدة، و منع عنه الاستحمام و النوم والاسقرار حتى وصل الأمر إلى أربعة أشخاص ينامون على سرير واحد.

كان قد سلم أمره لله؛ فكان دائما ينتظر الشهادة وقد كتب لعائلته في الرسالة التي أوصلها عن طريق الصليب الأحمر "أن يعتبروه شهيدا لو طال في المكوث بالأسر لأن هذه نهايته".

فكم من أسير استشهد في معسكرات الأسر وفقدوا أرواحهم بسبب التعذيب الذي لم يتحمله خاصة كبار السن منهم.

بعد سبعة أعوام

من دون أي ميعاد.. سمعت طرقات على الباب الحديدي الخارجي لمنزل إحسان ليخرج طفل صغير ذو أعوامه الحادية عشرة ويفتح الباب.. فيلاقي رجلين أحدهما ببدلة عسكرية والآخر بثياب قديمة شعره طويل نوعا ما بلحية نامية على وجهه قد غطت الكثير من معالمه.. هزيل منحني الظهر متعب.. لكن ببسمة خفيفة على وجهه فقال له الطفل الصغير: "من أنت وماذا تريد؟".

أجابه الرجل ذو البدلة العسكرية: "أليس هذا منزل الحاج رضوان؟".

هز الطفل رأسه إيجابا.. ثم سأله الرجل مرة أخرى: "من أنت؟".

قال الطفل: "أنا سمير، ورضوان جدي".

وقبل أن يكمل حديثه خرج والده خلفه ليرى من على الباب وهو يقول: "سمير، من هناك؟".

ليجيب الطفل ببراءة: "لا أدري يا أبي".

ارتسمت ضحكة على وجه الرجل.. إنه لا يعرفه بالطبع.. إنه طفل لا يعرف حتى وجه عمه.. أتى والد سمير وتوقف أمام الباب ليرى من هناك وقال: "أهلا يا سيدي".

اجاب الرجل ذو البدلة العسكرية: "أنا العريف حمدان والذي معي يدعى إحسان رضوان الذي كان أسيرا في إيران".

سكت الأخ دون أن يجيب بكلمة لصدمته.. قاطعهم إحسان وقال: "أنا إحسان.. يا أخي يبدو أن لا أحد سيتعرف بشكلي هذا".

لم يصدق الأخ بما تراه عيناه؛ فذهب ليضم أخاه إليه ويصرخ بأعلى صوته: "إحسان قد عاد يا أهل الدار.. أخي قد عاد سالما".

كانت عودته لأهله ولسيا حقيقة مبهجة للغاية، لكنها كانت ناقصة.. جدًّا.. كان يحيطونه من كل جهة حتى صاح فيهم والده ليتركوه حتى يستحم و يحلق ذقنه ويرتاح ثم سيحدثهم بكل شيء: "هيا يا أمير.. ساعد إحسان".

كان كل من في البيت سعداء جدًّا لكن الشفقة في عيونهم تؤكد الحزن الذي قتل الفرحة قبل أن تكتمل.. وأول الأمر أن يخبروا خطيبته لأنها كانت تنتظره بالصلاة والأمل كل هذه الأعوام.

صرخ إحسان وقال: "لا تخبروها.. لا أريد أن تراني هكذا".

أجاب الأب: "لا بد من إخبارها أنها تنتظرك كل هذه الأعوام.. لن تقرر عنها فيحق لها أن تحتار".

تنهد إحسان.. ليس لديه القوه على المناقشة.. نهض متكئًا على أمير وقال: "افعلوا ما يحلو لكم".

يخرج من حمامه مرتديا سترة رياضية باللونين؛ الأبيض والأزرق الغامق.. تبدو عليه كبيرة بعض الشيء مع أنها كانت له.. حلق لحيته وسرح شعره.. ظهر من تحت ذلك الحطام رجل آخر جلس على الأريكة بمساعدة أمير؛ أخاه الأصغر سنا منه.

تقف سما أمامه مدهوشة مصدومة لما تراه عيناها كان الصمت مخيمًا على تلك الصالة.. لم يستطع أحد أن يقول لها أي شيء.. حتى ترى بأعينها.

قال إحسان: "ما بكم.. لماذا صمتم كلكم هكذا.. قبل ساعة كنتم تتحدثون جميعكم بنفس اللحظة".

لم ينطق أحد.كل الأنظار معلقة على سما والآذان تصغي لما ستقوله...

"إحسان".. صدر اسمه من بين شفتيها فاهتزت كل أطرافه.

"أنا سما يا إحسان".. قالت.

تقدمت منه ببطء.. أمسكت بيده.. سحبها منها.. ذرفت دمعة من عينها.. ففهم الكل أن عليهم أن يتركونهم وحدهم وخرجوا جميعا من الصالة تاركين سما وإحسان وحدهم.

كان الصمت الذي بينهما غامضًا جدًّا.. بل مظلمًا كظلام ليل أو كالعتمة التي يعيشها إحسان منذ وقت طويل.

تجلس بجانبه تتردد في التقرب منه.. وهو لم ينطق بكلمة بعد. ليس هناك إلى كلام يشرح ما في داخله وما عاناه. يريد فقط أن ينام ويصحى وكان كل ما مر به

حلمًا فقط.. أو كابوسًا.

مسحت الدموع من عينيها وقالت بعد أن شجعت نفسها: "كيف حالك يا إحسان.. أنا كنت متأكدة أنك ستعود يوما".

لم يرد.. أكملت هي قائلة: "ألن تتحدث معي، ألست سعيدا برؤيتي. أنا أعلم أنك متعب، لكني اشتقت لك كثيرا".

اجابها بحدة قائلا: "لماذا يا سما".

قالت سما: "كيف؟ لماذا يعني؟ لم أفهم".

"لماذا لم تتركيني وتشبثت بي؟ يبدو أنك خسرت سنين من عمرك.. لست أنا احسان نفسه الذي رحل.. أنا شخص آخر".

أجابت هي: "لأني أحبك.. لطالما أحببتك.. لهذا كنت على يقين بأنك ستعود ونكمل من حيث توقفنا".

"هراء".. قال هو.

"أنا أعمى يا سما.. من سيربط نفسه برجل مثلي.. لو كنت عدت كما أنا لكان أسهل، أما الآن فلا".

قالت هي: "وأنا أحببتك لشخصك وليس لشكلك وما أنت عليه.. إحسان، أنا سابقى أحبك، لكن يبدو أنك تحتاج للراحة وأن تعيد التفكير بكل ما قلته الآن".

قال ضاحكا باستهزاء: "يبدو أنك لا تفهمين أو لا تريدين الفهم.. أنا اعمى. لن أنفع كزوج أبدا.. اقدر لك كل هذه السنين التي قضيتها في انتظاري، لكن لم يفت الأوان، ما زال هناك الوقت لكي تبدئي من جديد وتؤسسي عائلة مع

غيري".

نهضت سما من جانبه وقالت: "يبدو أنك أنت من لا تفهم.. لست أنا من تترك حبيبها في أصعب أوقاته.. سأتركك ترتاح، ثم نتحدث في وقت آخر.. الحمد لله على سلامتك".

تركته وخرجت تركض.. أوقفها والد إحسان وقال: "لا تحزني.. لا أحد يعلم سوى الله بما عاناه.. لقد تحملت كثيرا فإذا أردت أن تتحملي أكثر سيعود إليه عقله.. وإلا لا أحد سيعاتبك لو تركته".

ابتسمت من بين دموعها.. وأخذها والدها عائدًا بها إلى المنزل.

*****

عرض إحسان على أكثر من متخصص بطب العيون وكان جميعهم يقولون إن ما من جدوى لأي عملية تجرى له.. بات محكوما بالظلام طوال عمره.

كان قد تغير كثيرا.. لم يعد إحسان نفسه الذي عرفوه الرجل المرح الذي كان المزاح لا يفارقه، أما الآن فهو صامت معظم الوقت ومهموم. لم يقابل سما إلا مرتين بعدها وفي المرتين كانت باردة جدًّا..

كان هناك قرار جمهوري أن كل من عُرِّض لأي إعاقة بسبب الحرب سوف يتسلم راتبًا شهريا طوال عمره لقاء ما خسره من أجل تربة البلاد والدفاع عن شرفها. وفي حالته هذه التي لا تسمح له للعمل.

بعد انقضاء أشهر سته طويلة جدًّا.. دخل والده إلى غرفته ذات مساء وقال له: "يا بني.. أود أن أحدثك بأمر ما".

استدار إحسان إلى مصدر الصوت وقال: "تفضل يا أبي.. كلي آذان صاغية.

جلس بجانبه على السرير تنفس بعمق ثم قال: "أريد أن أحدثك بعلاقتك مع سما.. كما ترى هي لم ولن تتركك كما يبدو. وأظن مثل هده الفتاة ستكون سندا كبيرا لك في المستقبل.. إن من مثلها قليلات جدًّا يا بني.. أرى لو أنك تكمل الطريق معها وتتفقا على الزواجح فهي ستصونك وتهتم بك.. لن أدوم لك يا بني.. وكل من إخوتك له عائلة يهتم وتهتم به.

أطرق إحسان رأسه إلى الأسفل وقال: "أنا خائف يا أبي أن أصبح عالة على أي أحد. كم أتمنى الموت على هذه الحالة.. كنت أتمنى الموت هناك في الأسر لشدة العذاب الذي رأيناه وما سببه لي من أذى.. أخاف أن تعيرني يوما ما بإعاقتي.. أو أنها متشبثة بي الآن لأنها تشفق علي فقط.. أنا خائف بل أنا جبان جدًّا أن أعترف لنفسي بهذا أيضا".

وبدأ يبكي بحرقة حتى احتضنه والده وطمأنه أن سما ليست من هذه النوعية.. لو كانت كذلك لتركته منذ زمن..

فكر كثيرا. ثم طلب مقابلة سما وشرح لها مخاوفه وهي طمأنته بأنها ستقف بجانبه.. واتفقا على إكمال إجرإت الزواج.

عارض والدها الأمر في البداية خوفا على ابنته، لكن سما كانت متمسكة بحبها لإحسان، وكانت ستفعل المستحيل حتى تصبح ملكه.

تزوجا، وكان يوما ما أسعده من يومها أصبح الاثنان جسدا واحدا. اتفقا أن يعيشا في الطابق الأعلى لمنزل عائلتها لأنها البنت الوحيدة لهما ووالدها رجل متقاعد وسر بوجودهم وسكناهم معهم.

كانت سما تعمل في مختبرات لتنقية المياه في دائرة صحة بغداد وراتب الذي كان يأخذه إحسان من الحكومة كانت حياتهما تسير بخير حتى جاء اليوم الذي رزقا بها بفتاة جميله جدًّا، وتغيرت حياة إحسان منذ ذلك اليوم وبدأ يصبح أكثر شبها من نسخته القديمة.. وبعد سنتين أنجبت سما توأمًا "ولدين". فكبرت عائلتهم.. كمثل كل العائلات لم تخلوا من المشاكل لكنها لم تخلو من الحب أيضا.

وتمر السنوات والأطفال يكبرون.. لكن ما إن تستقر حياتهم أكثر حتى بدأت حرب ٢٠٠٣ واحتلال أمريكا للعراق. فبعد هذا اليوم تغير كل شيء.

كانت الأحوال مخيفة والقتل والسلب والاختطاف بكثرة ولخوفهم الكبير على أولادهم.. قرروا السفر إلى لبنان وتقديم ملفهم إلى الهجرة.. وهكذا خلال أسبوع تم السفر في بداية عام ٢٠٠٥.

سجلو في اليو أن UN ومع المساعدات التي كانوا يتلقونها والمدخرات التي كانوا قد أخفوها استطاعوا تدبير أمورهم لما يقارب السنة حتى جاء الوقت وسافروا إلى الولايات المتحدة وبدأت هناك حياة جديده لهم.

لكن إحسان لم يتخلص من عقدة إعاقته.. لأنه لم يستطع يوما أن يعمل ويعيل عائلته كما فعلت زوجته طوال أعوام.. كانت المنظمات الخيرية تشفق عليهم لأن رب أسرتهم أعمى.. حتى عاد وصولهم إلى أمريكا.. خصص له راتب تقاعدي بسبب إعاقته.

كان يرى أولاده وابنته يعملون ويخرجون ويقودون سياراتهم وهو لا يستطيع الحراك إلا بمساعدة أحدهم، حتى زوجته تعلمت السياقة وقادت سيارة وهو يجلس بجانبها كأي تمثال يزين المكان فقط. وهذا ما كان يحز في نفسه كثيرا

فأصبح عصبي المزاج جدًّا.. تغير ١٨٠ درجة في بلد لا يعرف لغته ولا يعرف أحد فيه.

حاول أن يعود للعراق أكثر من مرة ونشب عراك في المنزل بسبب هذا القرار، لكن في كل مرة يخسر الجدال لصالح أولاده، حتى جاءت سما زوجته التي تحملت الكثير من أجله، بكل حب، بخبر غير مجر حياتهم.

أطلعتها إحدى زميلاتها على عنوان طبيب مشهور أخصائي عيون، وكان سيطه يسبقه في العمليات الناجحة التي كان قد أجراها وأعاد البصر لكثيرين؛ فكادت تطير من السعادة عندما وافق أن يذهب ليراه الطبيب ويكشف عليه عله يعيد النظر إليه بعد أن كان قد يأس من عودة النور إلى عينيه.

كان يجلس على كرسي في صالة الانتظار.. تجلس بجانبه زوجته وابنته.. ترتعش قدمه وساقه بسبب التوتر.. تمسك سما يده وتهمس بقربه وتقول: "لا تقلق.. أنا متفائلة جدًّا.. سمعت أنه فعل المعجزات".

أجابها هو وقال: "لقد فات الكثير من الوقت وأنا أعيش في عتمة لا متناهية، حتى نسيت ما هي الألوان".

ربتت على يده وقالت: "لم تنسها، أنا واثقة أنك ستعود وترى حتى لو بصيصا من النور فقط.. آمن بقلبك".

ابتسم إحسان وسكت حين ندهت الممرضة اسمه لتدخله إلى غرفة المعاينة، وابنته كانت معهم بصفتها مترجم لوالدها.

كان الطبيب يفحص عينيه بجهاز متطور للغاية، ثم وضع قطرة في عينيه وعاد لينظر إليها من خلال نفس الجهاز.

بعدها أبعد الأجهزة من أمامه.. وأخذ ضوءًا حادًّا كأنه أحد أنواع الليزر، ووجهه إليه وبيده جهاز آخر صغير لكن يبدو غريبا بعض الشيء.. بمكبرات وعتلات يديرها يمينا ويسارا.

أخذ نفسا.. وترك كل شيء من يده وقال: "أنتم تعلمون أن الطب تقدم كثيرا.. وهناك طفرات طبية في علم العيون وجراحتها.. فيجب أن أقول لكم شيئا مهما. في كل عملية توجد مخاطر ونسبة فشل تتراوح بين ١٠ _ ٩٠. لكن في حالتك هذه يا سيد إحسان. فان نسبة نجاح عمليتك هي ٨٠ ٪ أو أكثر. لذلك أريد أن أبشرك وأقول. إذا لم يكن لديك مانع.. سنجري لك العملية خلال هذا الأسبوع إذا لم تواجهنا أي مشكلة طبية".

كانت الأنظار بين الأم وابنتها لا تفسر أبدا.. كانت الدهشة التي رسمت على وجه إحسان لم يرَها أحد منذ سنين طويلة كانت سعادتهم لا توصف بالخبر الذي تلقوه كأسرة وبدأوا بالحال بإجراء كل الفحوصات الطبية التي طلبها منهم الطبيب ليتحضر من أجل العملية.

خلال أيام دخل إحسان إلى المشفى من أجل الخضوع لعمليته التي كان ينتظرها لوقت طويل وكادت تصبح حلما صعب المنال.

قبل أن يدخل إحسان إلى غرفة العمليات وقفت بجانبه سما وقالت: "مهما كانت النتيجة لو خرجت كما دخلت.. لا سمح الله أو عاد لك نظرك. ستبقى كما أنت في نظري".

أمسك بيدها وقبلها.. شكرها ثم أدخلوه إلى الداخل.. لساعات طويلة وهم يعملون على إعادة النور.. لعتمته الموحشة.. يخرجونه ملفوف العينين بشاش

أبيض ما زال تحت تاثير المخدر.. نائمًا بعمق على سدية العملية.

تلتف حوله عائلته منتظرين أن يستيقظ ليطمئنوا عليه بتساؤلات وأمنيات يتوسلون أن تتحقق.. لقد مر على زواجهم ١٨ عاما.. لم تتغير القلوب مقارنة بالوجوه التي اتعبها الحال ومامروا به.

استيقظ ببطء يشعر بألم في رأسه كان طبيعيا، ويجب أن يحدث، طمأنه الطبيب أنه سيختفي بعد ساعات وأنهم سيفتحون اللفاف بعد ٢٤ ساعة من انتهاء العملية.

كانت هذه ٢٤ ساعة طويلة أكثر من ٢٠ عاما التي مضت عليه أعمى.

عاد أولادها إلى البيت وأما هي فقد باتت معه في المشفى.. نهض عند منتصف الليل كان يريد أن يشرب.. قدمت له سما الماء وساعدته على الاتكاء لم يكن يريد النوم أكثر.. جلست بجانبه فقال لها: "هل ما زلت كما أنت. لا تعلمين كم مشتاق لرؤية وجهك الجميل".

ابتسمت سما وقال: "قد تتفاجأ قليلا. ربما فلست كما كنت عليه".

قال لها: "كم تغيرت مثلا. بضع تجعدات حول العين هذا طبيعي".

ضحكت سما وقالت: "تجعيدات حول العين والفم. جرح على جبيني حين سقطت من أعلى المكتبة لما كنت أرتبها أتذكر قبل سنين".

قال إحسان: "نعم أذكر.. ترك ندبة لا أستطيع تخيله".

قالت: "واحتراق ساعدي حين كان التوأم يلعبان في المطبخ وأنا كنت اعد الطعام وحتى لا يحترقا هما احترقت أنا".

تنهد وقال: "صحيح أذكر".

ابتسمت وقالت: "وشعري قد تناثر الشيب فيه فاصبح بلونين".

أجابها هو وقال: "أنا أيضا.. أخبرتني ابنتي بذلك.. هل تعتقدين أنك تغيرت هكذا.. ما زلت كما أنت".

لم تجبه.. كانت خائفة من أن يراها مختلفة وليس مثلما كانت؛ فقد نحت الزمن عليها لوحة جديدة عن النسخة الاصلية.

تركته وعادت إلى الأريكه التي كانت قد استلقت عليها وأغمضت عينيها، وهي تعد الساعات من أجل فتح الشاش عن عينيه.

يفتح عينيه ببطء يقف أمامه الطبيب والممرضة التي قصت للتو اللفاف عنه من الجهة الأخرى عائلته ممسكين بأيدي بعضهم بعضًا.. يتقرب منه الطبيب ويقول: "والآن يا إحسان افتح ببطء عينيك.. قد تنزعج من الضوء، لكن حاول أن تفتحهما ببطء حتى تتعود عيناك النور من حولك".

هز إحسان رأسه بحماسة وبدأت أجفانه المغلقة تتفتح رويدا رويدا.. تحسس من الضوء على ما يبدو. عقدت حاجبيه.. كان يرى أمامه شبه أشباح بألوان براقة جدًّا. هناك ضوء قوي يتوسط الغرفة.. عاد وأغمض عينيه. شجعه الطبيب على فتحها مرة أخرى.

حاول مجددا.. هذه المرة وجد شخصًا على ما يبدو يرتدي الأبيض والأسود. ثم جال برأسه قليلا ليرى كما يبدو أربعة أشخاص بوجوه غير معروفة مشوشة تماما.. أعاد وأغلق عينيه مرة أخرى..

سمع صوت زوجته وهي تقول: "أخبرني يا إحسان.. هل ترى شيئًا ما؟ هل ترانا؟".

تنفس بعمق. وعاد مرة أخيرة فتح عينيه ووقع نظرة على امرأة تشبه فتاة أحبها كثيرا في شبابه، لكنها نسخة متغيرة كثيرا.. ابتسم. وقال: "سما".

ضحكت سما.. احتضنته وهي تردد: "الحمد لله".

أبعدها الطبيب بعد ثوانٍ. وأبعد أولاده الذين هرعوا لمعانقته.. وتعريفهم بأنفسهم لأنه أول مرة يراهم.

قال الطبيب: "سأضع لك هذه القطرة ونكررها ست مرات باليوم.. ثم نقلل قطرة كل يوم حتى نتوقف، وهذا سيساعد شبكة عينك لاستعادة قوتها.. لكن يجب أن ترتدي نظارات أيضا".

قال إحسان: "شكرا لك أيها الطبيب.. لم أتوقع يوما أني سأعود وأرى. وأخيرا أني أرى أولادي.. سأفعل أي شيء تقوله".

هنأه الطبيب ووعده أنه سيعود من جديد. والتمت حوله عائلته مجددا.. يحتفلون بعودة البصر لوالدهم الذي كان يرسمهم في مخيلته؛ فوجدهم أجمل بكثير من الخيال.. لكن كانت صدمته بالتغير الكبير الذي حدث لسما.

عاد للمنزل جميعا. احتفلو معًاا في مطعم فاخر ذات مساء على شرف إبصار والدهم.. عادت الدماء إلى شرايينه، كأنه شخص آخر حقا.. كأنه للتو بدأ الحياة من جديد، كأنه ما زال بعمر العشرين.

بدأت حياة إحسان تتغير فعلا.. كان يخرج كثيرا ويتسلى.. لم تهتم سما في بادئ الأمر وأوعزت أنه يحاول ملء الفراغات التي قيدته لسنوات طويلة.. يحاول أن يكتشف العالم من جديد، كانت سعيدة لسعادته ولروحه الجديدة.. لم يخطر في بالها أي أمر سيئ أو أن هناك أمرًا خطيرًا على وشك الحدوث.

قرر ذات يوم أن يسافر إلى المانيا، كان قراره مفاجئًا. صحيح أن أخاه أمير يعيش هناك؛ فقد هاجر واستقر هو وزوجته قبل عدة سنين.

لم تستطع سما السفر معه لما خيرها إذا كانت تريد الذهاب لأنها كانت تعمل ولم يمنحها رئيسها إجازة، لكنها شجعته على السفر وحده هذه المرة وستذهب معه في سفرة أخرى.

وهكذا غادر إحسان امريكا متوجها إلى ألمانيا من أجل لقاء أخاه.. كان المقرر أن يعود خلال شهر، لكنه أجل عودته لشهر آخر.. تحدثت معه سما بعد أن أجل رجوعه لشهر آخر وقالت: "نحن نحتاج إليك هنا أيضا يا حبيبي واشتقت لك كثيرا.. ما الذي خطر في بالك أن توجل سفرك".

قال لها: "أخي أصر علي كثيرا، ولم اكسر بخاطره.. سوف أعود قريبا وقبلي الأولاد عني".

لم يتحدث معها أكثر وأغلق الخط.. تعجبت سما كثيرا من تصرفاته كأنه ليس إحسان زوجها. لم يسألها حتى عن حالها أو كيف تمر الأيام من دونه وهي تشتاق إليه كثيرا. ١٩ سنة لم يفترقا قط، وهذه أأول مرة بعد كل هذه السنين.

كانت تقاوم أفكار الشر التي سيطرت عليها، ووسوسة الشيطان التي بدأت تأكل رأسها. وانقباضات قلبها المستمرة بحدوث أمر تجهله، لكن تشعر به بلا شك.

بعد آخر مكالمة بينهما بأسبوعين تقريبا. وصلت لها رسالة قادمة من القنصلية الأمريكية في ألمانيا.. فتحتها وهي ترتجف خوفا على زوجها.. لم تستطع الاتصال به خشية أن تسمع أخبارًا غير سارة.

جلست على كرسي في المطبخ. فتحت الرسالة كانت عبارة عن ورقة تخبرها أن زوجها السيد إحسان يجري معاملات الطلاق من ألمانيا وهو يخبرها بذلك. وأن السيد إحسان لن يعود إلى أمريكا. بل سيستقر في ألمانيا.

أعادت قراءة الورقة من جديد.. لم تصدق ما تقرأه..أحست بألم شديد في صدرها. أخذت هاتفها ورنت على إحسان؛ ليجيب الأخير بكل برود.

"لا بد أن الرسالة وصلت إليك، سامحيني يا سما. لاأستطيع أن أكون زوجا لك بعد الآن.. لقد وقعت في الحب هنا.. وأريد أن أكمل حياتي مع المرأة التي عشقت.. واتمنى أن تتفهمي ما مررت به وما أمر به الآن.. ستبقين إلى الأبد أمًّا لأولادي".

كان شيئا مقرف ما يقوله لها. أحست بأن معدتها تؤلما وكادت تتقيأ. أغلقت الهاتف وذهبت مباشرة إلى الحمام.. أفرغت ما في جوفها. واتكأت على الجدار تبكي بحرقة. بعد كل هذه السنين التي قضتها في حب رجل لم يستحق كل هذا الحب. لم يكن فاقد البصر، بل كان القلب أعمى.

"أتعلم؟ سأخبرك بشيء أخفيته عنك في غيابك هذا.. سأخبرك حكاية امرأة أحبتك وأحبت أيامها معك.. لا بل عشقتها! كانت ضحكتها تنبع من قلبها في تلك الأيام حين كنت معها.. كانت تُحس بأنّها تملك الدنيا بما فيها لمجرد أن يدك تمسك يدها، كانت تخفي حزنها من أجل إلا تخدش فرحتك.. تضحك من أجلك.. تحاول جاهدة أن تكون سعيدة كي ترى سعادتك.. والآن هي تبكي في الخفاء لأجلك.. تبكي لأنّ الحزن خيّم على قلبها.. اشتقت لك حقاً.. كن بخير لأجلي.. أحبك يا أنا".

مقتبس.

تمت